2015051111-00044a_TL

يوميات «حرب أهلية» طويلة...

د. هند صوفي

بدايات الحرب ليست كالمراحل اللاحقة خلالها. كل مرحلة اتصفت بتحولات كثيرة ومختلفة. ما أورده هنا وجهة نظر شخصية بعفوية مطلقة، لما عايشت وكنت في المرحلة الجامعية الاولى...

بعد انتظار طويل وسط جمعة متهافتة من الناس، استحصلت على ربطة الخبز، وضعت الاغراض والخبز على حافة السيارة ابحث عن المفاتيح. واذا برجل وهو يقود سيارته، يمد يده بكل بساطة ياخذ ربطة الخبز ويفرّ... كان هذا المشهد رائجا في بدايات الحرب، اصبحت كل مرة احصل على ربطة خبز اتشبث بها ولا اتركها الا في مكان آمن... مصطلحات حربية جديدة دخلت على قاموسنا، بتنا نتداولها، تعلمنا انواع الاسلحة من «اصبع ديناميت» الى سيارة مفخخة الى كلاشين الى م.ط... وهناك تلبيقات اخرى للاسلحة والصواريخ وفقا لحجمها مثالا «محشاية» للعبوات المتفجرة الصغيرة... كانت جدتي تركز على دعاء لم نفهمه الا حين اندلعت الحرب: «يا رب، أمنًا في اوطاننا ولا تموتنا الا في بيوتنا». قبل الظهر مساحة آمنة، كنا نتهافت على شراء الضروريات، بعد الظهر نتهيأ للإطمئنان على الجيران والأهل ومسلسل حماية أرزاق المسيحيين من الجيران الذين غادروا خوفا. فنأخذ التحف ونضعها في بيوتنا، ونلاحظ حركة المسلحين ونقاوم بسلام وباسم الدين والأخلاق. وقد نجحنا بإفشال العديد من المحاولات للإستيلاء على بيوت الزغرتاويين وغيرهم ممن كانوا في المدينة. غالبا ما كنا نستسلم في البيوت بعد الظهر، لا كهرباء ولا مولدات، لا تلفزيون إلا نادرا (تلفزيون لبنان في البدء قبل ظاهرة انتشار المحطات الجديدة)، ولا هواتف، نفتح السماعة واذا ما حالفنا الحظ يأتي الخط بعد ربع ساعة، نصف ساعة، أو أحيانا أكثر، لنطمئن على من هم خارج الحارة أو في بيروت... في المساء، على ضوء الشموع، نجتمع الجيران ونتجالس، درجت النراجيل فأصبح الجميع يدخن. نحاول دائما في تلك اللقاءات أن نحلل الأحداث السياسية وأن نتلافى ما يفرق بين الإصطفافات كي لا نكون طرفا في الحرب، وكي نحافظ على وحدة العيش... هكذا قررنا وضع باب حديد للمبنى، وباب حديد لكل بيت مع «ست طقات» إذ كان المسلحون يقرعون الجرس ويفرضون الخوات...

في بداية الحرب، كنت تلمس تردي درجة الأناقة لدى النساء، غالبا لم يكن هنالك كهرباء من أجل كي الثياب او تسريح الشعر. لكن استمرار الحرب أدى إلى تحولات كثيرة طالت جوانب من حياتنا وما زالت: تحولات في العيش اليومي (اقتناء المولدات وما زال هذا التحول أساسيا في حياتنا بعد الحرب)، تحولات اجتماعية وتنام لدور المرأة وعملها، عادات جديدة وعملية، تحولات ديموغرافية، ثقافية، الخ...

هاجر الرجال للعمل في الخارج، وهاجر الشباب للدراسة في الخارج، وظلت النساء والشابات ينتظرن رجوع الأحبة، وكم منهم من لم يرجع،

2o505uu-00046-2

٤٠ الحرب
مفقودو لبنان، وَيْـــــنُن؟

وكم من مشروع زواج فرقته الحرب، وكم من عاشق سافر وتزوج في الخارج، وكم من شابة ارتضت زواجا آخر، فالحرب لها ضروراتها، وكم من علاقات غريبة فرضتها الحرب والخوف من المجهول وقوى الأمر الواقع...

ماذا حققت الحرب لطرابلس؟ كانت المدينة فسحة آمنة نسبة لبيروت وللمناطق المشتعلة. لجأ اليها أهلها الأصليون وحاولوا الاستثمار فيها، فكانت «الناعورة» أول منتجع رائد في لبنان ربما. وقد شكلت للفارين من الاقتتالات ملاذا آمنا، كما كانت بديلاً من الإصطياف الذي تعود عليه اهل المدينة في الجبال التي لم تعد آمنة لهم. فانتشرت ثقافة البحر والتريّض وتعددت المنتجعات وتنوعت خدماتها لترضي طبقة اجتماعية جديدة تعمل في الخليج وتستثمر في المدينة. بقيت النساء عامة مع الاطفال من اجل المدارس التي كانت فعليا تعمل ٥ اشهر في السنة وتعطل لدى سماع طلقة رصاص، فنهرع الى المدارس لنحمي الاولاد في البيت. كم من صاروخ انفجر قربنا، كم من رصاصة اخترقت سيارتنا وكم من رعب مرّ علينا، ايام صعبة حرجة تتذكر وما تنعاد. كان كل منا -الناس الصامدين- يقاوم على طريقته. محبو الموسيقى كانوا يتمرنون ويحاولون احياء سهرات عائلية موسعة مع الاصدقاء لسماع الطرب الاصيل. والرابطة الثقافية تألقت بمعرض سنوي للكتاب، اهم بكثير من الذي نشهده اليوم، كان هذا المعرض عرساً للمدينة يجمع مثقفيها بنشاطات يومية ويؤمّه الجميع وكان يقام في مقر الرابطة. وكان هنالك مجموعة من قراء الكتب ومناقشيها يجتمعون في الرابطة التي اصبحت منارة للعلم والثقافة، وصارت ايضاً منبراً حراً يستضيف كل تحرك وتنسيق بين فعاليات المدينة. وفي زمن الحرب، تصبح آليات التنسيق ضرورية. فنشط المجتمع المدني في «التجمع الوطني للعمل الاجتماعي»، الذي اصبح له دور فاعل في تجنيب المدينة المخاطر وفي التنسيق مع الاحزاب والفعاليات وفي تأمين الخبز والضروريات والدراسة... أما النساء فقد أنشأن الهيئات النسائية الموحدة وعملن في الخدمات الرعائية. ونشطت الجمعيات في تقديم خدمات مختلفة في مجال التربية والمسنين والأيتام وغيره. كما نشأت ظاهرة جديدة من الجمعيات المطلبية لحقوق الناس، أعضاؤها من كل الطوائف خلافا لما درجت عليه العادة. على رأس القائمة «جمعية أصدقاء المعاقين» التي أدخلت مفاهيم وأبعاد جديدة على العمل المدني. طورت هذه الجمعيات وخاصة النسائية منها أساليب تمويلية جديدة: باتت طرابلس مبدعة في تقديم المسرحيات وتنظيم الافطارات الجماعية واحضار العديد من العروضات الفنية. خلال الحرب الاهلية زارت طرابلس داليدا وجين مانسون وكلود فرانسوا مع الكلوديت، وكل ما كانت تحضره السيدة بشرى ملك من عروضات فنية رائعة لم تشهد المدينة مثلها بعد الحرب. خلال الحرب اقيمت المعارض التشكيلية الرائعة لفنانين، مثل: امين الباشا، بول غيراغوسيان وجيه نحلة وهرير. خلال الحرب عرفت المدينة تجارب جديدة واخذت دورا مرموقا انحسر في زمن السلم...

من جهتهم، تجمّع أساتذة الجامعة العاملون في بيروت، لافتتاح فروع اختصاص في طرابلس، ونشات أول جامعة في المدينة، كما افتتحت الجامعة اليسوعية فرعاً صغيراً لاستقطاب الطلاب والطالبات الذين لم يتمكنوا من الذهاب إلى الأشرفية. ساهم ذلك في استقطاب الطلاب من كل الأعمار وخاصة النساء، اللواتي تابعن العمل بعد الدراسة وتألقن بالنجاح في

2015054 11-0004 C-R

انتاج أجمل البوتيكات، وفي الحرفيات والفنون وترويجها... كان للمرأة الدور الاساس في الأسرة، خاصة في عهد الوصاية السورية. فالمرأة كانت تتجول عابرة الحواجز بسهولة أكثر من الرجال ولا تتعرض للإهانات كالرجال وتتدارك الأمور والنزاعات المجانية. وقد حفلت المدينة بنساء أدّين الخدمات الكبيرة المبدعة خلال الحرب...

غادرت راهبات الكرمليين لتأتي الليسيه الفرنسية مكانها وتشكل ظاهرة جديدة كمدرسة مختلطة أولى في المدينة. ولأن ضرورات الحرب كانت ملحة، أصبحت غالبية المدارس مختلطة تستوعب عددا متكاثرا من الطلاب من مناطق مشتعلة يأتون إلى المدينة. غيرت هذه الظاهرة في العادات والتقاليد حتى أصبحت أمراً اعتيادياً في أيامنا.

الذهاب إلى بيروت كان كارثة، كم من مرة تعرضنا لإهانات ومذلة على الحواجز. في إحدى المرات وقفت لساعات، وكنت حاملاً، محتجزة مقاصصة على حاجز البربارة، وأنا لبنانية، لأنني من مواليد مدينة اللاذقية السورية. لم أسلم منهم إلا حين جاء أحد القادة الكشفيين من مدرسة الطليان وكنا نتعامل معهم نحن كشافة العازارية. عرفني القائد و«حرّرني»... كان الذهاب الى بيروت مشقة، عليك أن تقطع أكثر من ٧ حواجز أو أكثر. ولكل حاجز مخاطر ومفاجآت. كنت راجعة ذات مرة برفقة والدتي، فاستأذنني السائق إن كان بالإمكان أن يأخذ معه صديقاً ينزله في شكا. وكان الوقت متأخراً. لم أمانع في ذلك الوقت الصعب، والسائق معروف من طرابلس أتعامل معه دائماً. مجدداً، على حاجز المدفون، وقفنا طويلاً، لم أفهم السبب في البداية، إلى أن جاء السائق يطلب منا أن ننتقل إلى سيارة أخرى كان قد أوقفها. والسبب ببساطة أنه كان ينقل صديقه ميتاً، ليوفر على أهله نقله في تابوت، فأجلسه في المقعد الأمامي كأنه نائم، وكشفوا الأمر على الحاجز...

قصص وحكايات لا تنتهي من أيام الحرب، مرت علينا بمرارة: القصف العشوائي، اصوات القذائف، المجازر التي تجنبت ذكرها، والسيارات المفخخة التي أرعبتنا ولّما تزل، الخطف على الهوية وما شكله وما يشكله لنا الآن. لا تزال فصول من الحرب اللبنانية مليئة بالاسرار، على غرار الحروب كلها، لا تعرف حقائقها كاملة إلا بعد سنوات، فقد تخللها مثل كل الحروب، اتصالات بين المتحاربين انفسهم، بين الاعداء والأصدقاء، حتى بتنا لا نفهم ما يحصل. في ساعاتها الاولى، لم أكن أتخيل قط أننا دخلنا في حرب طويلة... تعلمت الآن معنى كلمة «حرب أهلية»، وانا ناشطة من أجل السلام، تعلمت أن الجسور يجب أن تبقى مفتوحة للحوار، وان الأمور يجب أن لا تخرج عن السيطرة. في الحرب بات كل منا يبحث عن هويته ومرجعه، فالموارنة أعدوا الدراسات عن تاريخهم، وتبعهم كل الطوائف الأخرى. تعالوا نعيد كتابة تاريخنا معاً، تاريخ الوطن لنبني وطناً... شكلت الحرب حدثاً بارزاً فى تاريخ هذه المنطقة لما اشتملت عليه من تداخل بين السياسة والدين، ولما سببته من مذابح ومجازر، ولما أرسلته من إشارات عن مستقبل غير مستقر، ولما خلفته من ذكريات حزينة فى تاريخنا الحديث... ٢٠٠ الف قتيل و٣٠٠ ألف جريح ومعوق و١٧ ألف مفقود، مليون مهجر، وخسائر فاقت ١٠٠ مليار دولار، مع تدمير احياء كاملة من العاصمة بيروت... هل فعلاً نحن أعجز من أن نبني السلم؟